الفصل الثانى

الخطابة والوصايا فى مصر

(١) الخطابة :

كان من الطبيعى أن ينتقل البيان العربى إلى مصر مع الفاتحين ، وأن يكون استخدام هذا البيان بقدر ما تدعو إليه الضرورة أولا .

وكانت حاجة العرب فى أول هذا الفتح شديدة إلى خطابة يثبت بها القائد قلوب جيشه ، ويبعث بها الحمية والإقدام فى جنوده ، ويهون بها شأن أعدائهم ، ويذكرهم بما خرجوا من أجله وهو النصر أو الشهادة .

وكانت الجمعة فرصة مواتية يخطب فيها كل أسبوع ، فيتحدث فى الشئون العامة التى تشغلهم ، فإذا دعت الضرورة إلى خطابة فى أى وقت آخر كان القائد أو أحد أعوانه أسرع إليها ، وأقدر عليها ، وكانت استجابة الجند وغيرهم سريعة إليها .

وروى أن المسلمين كانوا فى يوم جمعة قد اجتمعوا للصلاة ، فسار بينهم عمرو بن العاص يحرضهم على القتال ، وكان ذلك فى أثناء حصار « بابليون » ، فرآهم ريبئة القوم ، وحمل إلى قومه فى الحصن خبر اجتماعهم ، فلما انتهى عمرو من خطبته نزل عن منصته الساذجة التى كان يخطب عليها ، وأم المسلمين فى الصلاة .

وفى هذا دليل على أن خطبة الجمعة كانت تدور حول ما يشغل المسلمين من أمرهم ، وأهم ما كان يشغلهم يومئذ فتح الحصن ، فكانت خطبة عمرو فى التحريض على القتال .

وكان قائد الفتح عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أول خطباء العرب بهذه الديار وقد كان قائداً منصوراً ، وخطيباً فصيحاً ، ورسولاً معروفاً بالكياسة والدهاء .

وكان له فى مصر صفة القائد والحاكم والإمام ، فتنوعت خطابته بين الحرب والسياسة والدين ، وكثرت هذه الخطب وتعددت ، ولكن ما بقى منها قليل إذ كان التدوين قليلا ، وكان حفظ الخطب عسيراً. وإن ما بقى من هذه الخطب يدل دلالة كبيرة على بلاغة قائلها ، ووضوح عقله وصراحته . فتراه فى إحدى خطبه يقرر العلاقة بينه وبين أهل البلاد فى إيجاز وصراحة .

روى أنه رضى الله عنه خطب مرة على المنبر فقال : « لقد جلست مجلسى هذا فى هذا البلد ، وليس لأحد فيه علىَّ عهد ولا عقد ، إن شئت قتلت ، وإن شئت سبيت » .

وفى صفات عمرو أنه كان فصيحاً فصاحة جعلت سيدنا عمر رضى الله عنه يذكره لما رأى رجلا يتعثر فى كلامه ، فيقول « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد » ، ومعنى ذلك أن الله خلق الفصيح مثل عمرو : والتمتام مثل ذلك الرجل ، وأن عمراً كان معروفاً بهذه الفصاحة حتى كان أقرب من يخطر ببال عمر عندما أراد المقارنة .

ومما يدل على اهتمامه ، واهتمام الناس جميعاً بالقول ، ما ورد عنه بعد فتح الإسكندرية ، فقد أراد أن يرسل معاوية بن حديج إلى الخليفة يبشره ، فطلب منه رسالة مكتوبة : فقال له عمرو : ألست امرأً عربياً تقدر على وصف ما شهدته !

خطبة لعمرو :

وتبدو حكمة فاتح مصر فى خطبته التى قالها فى مسجده ، فى يوم جمعة [1] ، بعد أن استقرت الأمور .

قام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم أمر الناس بالإحسان

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٣ .

والصدقة وطاعة الوالدين : وأمرهم بالقصد ، ونهي عن الإفراط والفضول ، وقد قال فيها :

« يامعشر الناس إياى وخلالا أربعاً ، فإنها تدعو إلى النَّصَب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذل بعد العز : إياى وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، فى غير دَرَك ولا نوال . إنه لا بد من فراغ يؤول المرء إليه فى توديع جسمه والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وشهواتها ، فمن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء فى فراغه نصيبَ نفسه من العلم ، فيكون من الخير عاطلا ، وعن حلال الله وحرامه عادلا .

يامعشر الناس قد تدلت الجوزاء ، وارتفعت الشِّعرى ، وأقلعت السماء : وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعي ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى حسن النظر ، فَحَيَّ بكم على بركة الله إلى ريفكم ، فتناولوا من خيره ولبنه ، وخِرافه وصيده ، وأَرْبِعُوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها ، فإنها جُنتكم من عدوكم ، وبها تنالون مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتم من القِبْط خيراً ، وإياكم والمسوَّمات والمعسولات فإنهن يفسدن الدين ويُقَصِّرْنَ الهمم .

حدثنى أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً ؛ فإن لكم فيها صِهراً وذمة » فكفوا أيديكم وفروجكم : وغُضوا أبصاركم .

فلا أعلمَنَّ ما أتى رجلٌ أسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال . فمن أهزل فرسه من غير علة حططتُه من فريضته قدر ذلك . واعلموا أنكم فى رِباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم ، معدنِ الزرع والمال والخير الواسع والبركة التامة .

« حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقال له أبو بكر : ولِمَ يارسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة فاحمدوا الله معشر النـاس على ما أولاكم ، فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس الزرع ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوَّح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحى إلى فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدَمن أحدٌ منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تُحْفَةٌ لعياله على ما أطاق من سَعَته أوعُسرته . أقول قولى هذا وأستحفِظُ الله عليكم » . (١)

هذه الخطبة من أطول الخطب التى حفظت لنا من تاريخ الولاة بمصر ، وأشملها ؛ فقد جمعت بين الموعظة والتحذير ، وبين الآداب العامة والخاصة ، ودعت إلى الراحة بعد النصب ، وإلى متابعة العلم فى وقت الفراغ ، وإلى تمتع المرء بالشهوات مع القصد والاعتدال .

ثم دعت المخاطبين إلى أن يذهبوا إلى الريف ، وأن يحسنوا الاستمتاع بخيره ، وأن يرعوا خيلهم حق رعايتها . ثم وصاهم عمرو بالقبط خيراً وذكر وصية النبى صلى الله عليه وسلم فيهم . ثم عاد إلى العناية بالخيل ، وما قاله صلى الله عليه وسلم فى جند مصر : وأمرهم بعد ذلك بالعودة إلى الفسطاط ومع كل منهم ما قدر ، تحفةً لعياله .

وإذا كان هناك ما يؤخذ عليها فهو ترك الكلام قبل أن يكتمل ، والحديث فى نقطة ثم العودة إليها ، بعد الكلام فى مسألة أخرى ، كالوصية بالقبط والحديث عن الخيل . وهذا اضطراب لايتفق مع ما عرف به عمرو من حضور البديهة ، ولباقة الحديث . وربما كان جمعها من ألسنة الرواة عند تدوينها سبباً فى هذا القلق البادى فيها

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧١ .

فإذا نظرنا إليها مجزأة وجدنا فى معانيها ما يأباه الطبع العربى ، فكيف ينهى عن كثرة العيال والله هو الرزاق . ثم إن العرب يفخرون بكثرة الولادة . وإذا كانت حاجتهم إليها فى الجاهلية شديدة فحاجتهم إليها فى زمن الفتوح أشد .

لكنها كانت فى جملتها دستوراً طيباً لو سار عليه العرب لحفظوا لأنفسهم هيبتها ، وغرسوا فى قلوب جيرانهم من القبط محبتها ، وأخذوا للطوارئ عدتها ، وكان من الطبيعى أن تثير أحداث هذه الفترة روح الخطابة فى الجانب الآخر أيضاً ، ومن أشهر خطبائهم « قِيرِس » المقوقس بطريق المذهب الملكانى ومبعوث الإمبراطور . ومن أشهر خطبه خطبة ألقاها فى كنيسة « القيصريون » ، وقد أقيمت فيها صلاة التحية بمناسبة عودة هذا البطريق من القسطنطينية يوم الاحتفال بعيد الصليب . وفى حديث بتلر[1] عن قيرس « إنه رب البيان والبلاغة » وكان موضوع خطبته تذكيراً للناس بجهاد هرقل فى سبيل الصليب حتى استرده من الفرس وأقامه فى بيت المقدس .

ويرى بتلر فى هذه الإشارة إلى بيت المقدس غرضاً خفياً ، وهو تذكير السامعين بأن بيت المقدس قد صار الآن فى يد المسلمين ، يريد بذلك أن يوهن قلوبهم والمسلمون على أبواب الإسكندرية .

وهناك خطيب آخر من رجال الدين الأقباط وهو البطريق بنيامين الذى ذهب لمقابلة عمرو بعد فتح الإسكندرية فخطب بين يديه « خطبة جليلة » ، وكان عذب المنطق فى تؤدة ورزانة ، ولاشك أن عمراً لم يفهم منها حرفاً واحداً كما يقول بتلر ، ولكنه عندما عرف ما يقصده ، وفهم مراميه ، أحسن تلقيها وقبولها ، وجعله أميراً على قومه . ولاشك أن خطبة بنيامين قد ترجمت له فعرف منها ما يقصده[2] .

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٧٢ (٢) ص ٣٨٤ المصدر نفسه .

الصلح بين عمرو والمقوقس:

خرج المقوقس ليلا من الحصن ، والمسلمون محاصرون له ، وعبر النيل إلى جزيرة الروضة ، ثم أرسل إلى عمرو جماعة ، كان منهم أسقف بابليون ، فلقيهم عمرو وأكرمهم ، فأدوا رسالتهم ، فقالوا : « إنكم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء » .

فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ،وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين ، إذ أبيح لهم أن يسيروا فى العسكر ويروا ما فيه ، ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال : « ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا : وكان لكم ما لنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين .(١)

وعاد الرسل وقد وقع فى نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب . وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١١ .

منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم » (١)

فأقسم المقوقس : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم .

وأرسل المقوقس إلى عمرو كى يرسل إليه وفداً للمفاوضة فأرسل إليه جماعة فيهم عبادة بن الصامت ، وكان أسود شديداً ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب الروم إلى شىء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال : « نحوا عنى ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمنى » فقال العرب جميعاً : « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . ثم قالوا ، فكان قولهم عجيباً عند المقوقس : إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد أحدا إلا بفضله وعقله وليس بلونه ، فدعا المقوقس عبادة أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه ، فقال له عبادة :

« إن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً منى ... وإنى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى ؛ وذلك إنما رغبتنا وهمتنا فى الجهاد فى الله ، واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها ... لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها ، يسد بها جوعه ليله ونهاره . وشملة يلتحفها... لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء فى الآخرة » .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١١

فوقع هذا القول فى نفس المقوقس وقال لأصحابه : هل سمعتم مثل كلام هـذا الرجل ! إن هذا وأمثاله قد أخرجهم الله لخراب الأرض» ثم أقبل على عبادة فقال :

« أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لجهم للدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مما لا يحصى عدده : قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ... ، ونحن تطيب نفوسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها ، وتنصرفون إلى بلادكم [قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به]

فقال عبادة :

« يا هذا ، لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به ، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا ، إذا قدمنا عليه ؛ إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين ، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا . . . فانظر الذى تريد ، فليس بيننا وبينك

خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك فى الباطل ؛ بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا » .

جرت هذه المفاوضة بين العرب وعلى رأسهم عبادة ، وبين الروم وعلى رأسهم المقوقس ، وقد كان طابع هذه المفاوضة أدبياً سياسياً دينياً من جانب العرب ، تتجلى فيه صراحة الحق ووضوح البيان وقوة التعبير ، كما تتجلى فيه قوة الإيمان ، واليقين بالنصر ، والثقة فيما وعد الله به ، والرغبة فيما عنده من عاجل الثواب وآجل النعيم .

ولا أدرى كيف خوفهم المقوقس بكثرة العدد ثم عرض عليهم مالا لينصرفوا ألم يكن يعلم مواقفهم فى الشام ، وكيف يخاف من سواد عبادة وما جاءه إلا مفاوضاً ، وما شأنه برياسة وفد المسلمين ، ربما كان ذلك كله فرصة استطاع فيها عبادة ورجاله أن يقدموا للمقوقس صورة من المساواة والإخاء مع اختلاف اللون ، وأن يبينوا له ما فى الإسلام من مثل عالية فى معاملة العدو والصديق . أما دستورهم الذى ثبتوا عليه فهو دستور الإسلام : واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

ومن أحسن ما يعجبك فى هذه المفاوضة لباقة هذا البدوى الأسود وهو يرد على الرومى الأبيض . فقد حسب المقوقس أنه ينفذ إلى شجاعة العرب إذ يذكر لهم كثرة العدد ، وحسب أنه يغريهم بالمال فيصرفهم عما قصدوا إليه ، فكان رد عبادة على هذا التخويف والإغراء رداً صريحاً بعيداً عن المخادعة والمداورة وملزماً له وللمقوقس إذ يقول له : « أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم . . . . . فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به » . ثم يبين له أن ذلك أدعى للإقدام على الروم فإن هزمهم العرب كثرت الغنيمة ، وإن ماتوا فى سبيل الله ففى رحمته ورضوانه خير الجزاء ، وتلك أحب الخصلتين إليهم ، وبمثل هذا الإيمان ثبت فى نفس المقوقس أن هؤلاء لو استقبلوا الجبال لأزالوها .

وقد كان العرب عند حسن ظنه فأزالوا ملك الروم وثبتوا أركان الإسلام فى البلاد .

توالت على هذه البلاد أحداث بعد عمرو بن العاص ، فقد عزله عنها عثمان رضى الله عنه ، وثارت فيها الفتن ، ونشطت الخطابة فى هذه الفتن ، ثم قتل عثمان بيد المصريين كما يقال ، وأرسل على كرم الله وجهه والياً من قبله هو قيس بن سعد بن عبادة . فلما بلغ مصر صعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرىء على أهل مصر[1] . وقد ذكر فى هذا الكتاب فضل الإسلام والرسول الكريم ، وأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قاما بأمر الإسلام بعد الرسول وعملا بالكتاب والسنة ، « ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه مقالا فقالوا ، ثم نقموا عليه فغيروا ، ثم جاءوني فبايعونى ، فأستهدى الله عز وجل بالهدى ، ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب ، والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » . وأخبرهم أنه بعث إليهم قيس بن سعد أميراً . وختم الكتاب بتاريخه صفر سنة ٣٦ هـ .

ثم إن قيس بن سعد قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال[2] :

« الحمد لله الذى جاء بالحق ، وأمات الباطل وكبت الظالمين . أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم » . فقام الناس وبايعوا واستقامت له الأمور زمناً حتى

(١) ص ٤٢٥ تاريخ الإسلام « النجار » ، النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٩٧

(٢) تاريخ الإسلام ص ٤٢٤ — ٤٢٧ .

أوقع معاوية به عند على فعزله . وتحركت جيوش معاوية بعد ذلك إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص فاستولى عليها وظل بها حتى مات سنة ٤٣ هـ .

خطب عتبة :

ثم وليها عتبة بن أبى سفيان من قبل أخيه معاوية سنة ٤٣ هـ . وكان عهده على قصره كثير الخطب ، وهو أكثر من روى له التاريخ خطباً فى ولاة مصر ، وقد روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد[١] له ست خطب . يصرح فى خمس منها بأنها كانت فى مصر ولأهل مصر ، ويتحدث فى السادسة حديث الوالى القادر إلى الرعية العاصية ، ولم نسمع بأنه ولى ولاية أخرى غير مصر . وهذه هى نصوصها كما أوردها ابن عبد ربه ، مع خلاف فى الترتيب :

١ — خطبة عتبة بن أبى سفيان :

بلغه عن أهل مصر شىء فأغضبه ، فقام فيهم فقال[٢] بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أهل مصر إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً ، فإن لله فيكم ذبيحاً لعثمان أرجو أن يولينى الله نسكه ! إن الله جمعكم بأمير المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذى حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطه ، وأصفحكم — بعد المقدرة — عن حقه ؛ نعمة من الله فيكم ، ونعمة منه عليكم . وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة السنة ، فأطأكم لله وطأة لا رمق معها ، حتى تنكروا منى ما كنتم تعرفون ، وتستخشنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور .

---

(١) ج ٢ من ص ٣٨٩ — ٣٩١ .

(٢) ص ٣٨٩ العقد الفريد ج ٢ .

٢ — وخطبة لعتبة :

قدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر: إن قبلك قوماً يطعنون على الولاة ، ويعيبون السلف ، فخطبهم فقال [١] :

يا أهل مصر ؛ خَفَّ على ألسنتكم صدع الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتونه ، كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها : ولم ينفعه ثقلها ، وأيم الله ، لا أداويكم بالسيف ما صلحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتنى الدرة ، ولا أبطىء عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا . وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال : فعل ويفعل ! وكونوا خير قوس سهما ، بهذا اليوم الذى ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب .

٣ — وخطبة لعتبة بن أبى سفيان :

سعد القصير قال : وجه عتبة بن أبى سفيان ، ابنَ أخت أبي الأعور السلمى إلى مصر فمنعوه الخراج ، فقدم عليه عتبة فقام خطيباً فقال [٢] :

يا أهل مصر ، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ببعض الجور عليكم ، فقد وليكم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن رددتم ترادكم بيده ، وإن استصعبتم ترادكم بسيفه ، ثم رجا فى الآخر ما أمل فى الأول . إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل . فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عقدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز ، ومن حذر كمن بشر . »

قال : فنادوه : سمعاً وطاعة ، فناداهم عدلاً عدلا .

---

(١) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩١ .

(٢) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩١ ، الولاة والقضاة ص ٣٥ ، النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٢٤ .

٤ — وخطبة لعتبة :

العتبى ، قال سعد القصير : احتبست عنا كتب معاوية بن أبى سفيان حين أرجف أهل مصر بموته ، ثم قدم علينا كتابه بسلامته ، فصعد عتبة المنبر والكتاب فى يده ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أهل مصر قد طالت مُعاتبتنا إياكم بأطراف الرماح وظبات السيوف ، حتى صرنا شَجًى فى لهاكم ما تسيغه حلوقكم ، وأقذاء فى أعينكم ما تطرف عليها جفونكم ، ألحين اشتدت عرى الحق عليكم عقداً ، واسترخت عقد الباطل منكم حلا ، أرجفتم بالخليفة ، وأردتم تهوين الخلافة ، وخضتم الحق إلى الباطل . وأقدم عهدكم به حديث ، فأريحوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم . فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه والعهد القريب منه . واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم فأصلحوا لنا ما ظهر ، ونكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً وإن أضمرتم شراً ، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون ، وعلى الله أتوكل وبه أستعين . ثم نزل .

٥ — وخطبة لعتبة بن أبى سفيان فى أهل مصر :

يا حاملى الأم أنوف ركبت بين أعين ! إنما قلمت أظافرى عنكم ليلين مسى إياكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على الولاة ، والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن على ظهوركم بطون السياط فإن حسمت داءكم وإلا فالسيف من ورائكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة ، إذا جدتم لنا بالمعصية ، ولا أو يسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى[1] .

٦ — خطبة لعتبة بن أبى سفيان :

لما اشتكى شكاته التى مات فيها تحامل إلى المنبر فقال :

---

(١) فى صبح الأعشى جـ ١ ص ٢١٦ والأمالى جـ ١ ص ٢٤٥

يا أهل مصر ، لا غنى عن الرب ، ولا مهرب من ذنب ، إنه قد تقدمت منى إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنياى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شفى من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم ، سلام من لا ترونه عائداً إليكم .

قال : فلم يعد .

تعليق على هذه الخطب :

فالخطبة الأولى قد بدأت بالتحذير من السيف ، وضحت أن لهذا السيف ثأراً فى رقابهم بما قتلوا عثمان ، وأن الأخذ بهذا الثأر قربة إلى الله يتمناها .

ويعود فيذكر أمير المؤمنين وفضله فى جمع الشمل ، وأهم من ذلك عنده وعندهم « العطاء » ، ثم يصل إلى ما كان حقه أن يبدأ به وهو ما بلغه عنهم ، ثم يحذر وينهى عن الخروج على الطاعة . وكأنه يلمس ناحية حساسة فى قلوبهم إذ يشهد عليهم الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ومما قدمت تظهر قوة خطبته من حيث ترتيب معانيها وعلاقتها بالسامعين . فإذا أضيف إلى ذلك جمال الأسلوب ، وحسن التصوير وبديع الزخرف بلا تكلف ولا تعمل زادت قوة . ففيها سجع لا تكلف فيه : وطباق فى وحشة الباطل وأنس الحق ، وإحياء الفتن وإماتة السنن ، والإنكار والمعرفة ، ويستخشنون ويستلينون. ويقوى الخطبة ويترك لها آثاراً فى النفوس إستناده إلى الحق ، وأنه إن وطئهم وطأة لا رمق معها فذلك « لله » .

وليس من المعقول أن يحلل السامع كل هذه تحليلا دراسياً ، ويفعل ما نفعله نحن : ولكن هذه الآثار تسرى إلى نفسه على هذا النحو الذى قدمته فتترك فعلها

فى قرارتها ، وتصل به إلى الإذعان رغبا ورهباً ، وهذا هو سر قوتها .

والخطبة الثانية : أقرب إلى اللين من السابقة ، وفيها تنديد قبل التهديد ، تهديد مشوب بروح العدل ، فهو لن يبدأ بالشدة ، ولن يلجأ إليها ما استقاموا على سبل الهدى : ولن يتأخر عن أداء الحق إلى من يلزم حدود الله ، ولعله يقصد بما أمرهم الله به طاعة أولى الأمر المطلوبة فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(١) ، وتشبيههم بالحمار يحمل أسفارا تشبيه غامض ، وإن فصله بعد ذلك ، والمراد به أن علمهم بالحق والباطل لم ينفعهم ، وهى فى جملتها أضعف من الخطبة الأولى تركيبا .

أما الخطبة الثالثة فلها ظرف خاص جاء به الكندى إذ يقول إن عتبة بعد إقامته فى الولاية أشهراً ، « وفد على أخ... من أشراف أهل مصر ، واستخلف على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث ... وكانت أمه أخت أبى الأعور السلمى ، وكانت فيه شدة على أهل مصر ، فكرهوا ولايته وامتنعوا منها ، فبلغ ذلك عتبة فرجع إلى مصر » .

وفى رواية : « فكتب إلى عتبة ، فقدمها فدخل المسجد ورق... المنبر فحمد الله وأثنى عليه » وقال الخطبة وفيها المعانى المكررة فى الخطبتين السابقتين تقريبا ، فهى تهديد مشوب بالترغيب فى الطاعة ، وكأنما كانت سياسته معهم قوله تعالى : « وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نَعُدْ »(٢) .

وكانت عاقبة الخطبة خيراً ، فقد نادوه من جنبات المسجد سمعاً سمعاً ، فناداهم عدلاً عدلا .

أما الرابعة ، وهى خاصة بما أرجفوا به من مرض أخيه وموته ، فظاهر فيها

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

(٢) سورة الأنفال آية ١٩ .

obeikandl.com

السخط على طول عصيانهم ، وعدم إيمانهم بحق الخلافة المقدس ، وفيها إشاعة روح اليأس فى نفوسهم ، ورغبة ملحة فى أن يستريح من ثوراتهم وأراجيفهم ، وإن أضمروا شراً ، فلا شأن له بالضمير .

وروح الخطبة الخامسة تهديد ووعيد وسباب وشتم . وختامها دعوة إلى الطاعة ووعد بالمثوبة عليها إن حدثت . وهى كالأولى فى زخرفها وزينتها وبخاصة الطباق فى « ظهور وبطون » والبخل والجود ، ثم حسن التقسيم ، واتساق الفواصل وقوة النغم .

وكل خطبة من هذه الخطب الخمس مثال واضح لعتبة ، وإذا كان هناك ما تجتمع فيه من الصفات فهو دورانها حول التحذير والإنذار بالعذاب الشديد ، والدعوة إلى الطاعة ليجزيهم خيراً بخير ، والإكبار لحق الخلافة وبيان فضلها ، وفى أسلوبه قوة ، وفى عباراته رنين ، وفى ألفاظه انسجام ، وفى زخرف جمله بُعد عن التكلف .

أما خطبته التى لم يعد بعدها إلى المنبر ، فهى خطبة التوبة والندم ، وهى خطبة النفس التى تحس بما قدمت ، وتخشى ما هى مقدمة عليه ، ففيها معنى الحسرة على ما فرط فى جَنْب الله ، وعلى ما يحتمل من ظلمه لعباد الله ، ولكنه واسع الرجاء فى المغفرة .

وهذه كلها خطب سياسية ، طابعها الشدة والتحذير والوعيد ، لأنها كانت فى عهد تكوين الدولة وتأسيس الملك الأموى ، والناس قريبو عهد بثورة ، ولكنها تتسم بسمات معاوية أخيه ، من اختلاط الوعد بالوعيد ، ومزج اللين بالشدة ، والإغراء بالعفو والجزاء .

ولا يفرقها عن غيرها من خطب هذا العهد فى قوة الأسلوب وحسن التصوير إلا أنها مصرية الموطن ، ولو قيلت فى العراق أو الشام لما اختلف إلا المخاطبون ،

وهذا يؤيد ما نكرره من أن أدب هذه العهود أدب عربى الصبغة ، صادف أن قيل فى أرض مصر فنسب إلى هذه الديار واتصل بأدبها .

كلمة عامة عن الخطابة :

وكان عتبة آخر الخطباء الذين حفظ لهم الأدب خطباً من ولاة مصر ، ولكن الخطابة لم تمت بموته ، فدواعيها ظلت موجودة ، وولى أمر الناس رجال ذوو لسن وفصاحة ، ولكن النصوص التى تؤيد هذا القول غائبة ، وإن كانت أدلتها شاهدة فمن الأحداث الهامة التى حدثت بمصر ثورة محمد بن أبى حذيفة على عقبة بن عامر ، وإخراجه من الفسطاط ، والدعوة إلى خلع عثمان . ومثل هذه الثورة على عثمان لا يمكن أن تثور بلا مثير، ومن أهم وسائل الإثارة أن يخطب الساخطون ، بالطعن على عثمان ، وبيان ما يأخذونه عليه ؛ وكانت لابن أبى حذيفة طريقة ماكرة فى التغرير بالناس ، فقد كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت ، فيستقبلون الشمس بوجوههم لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، وأن يرسلوا رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم ، وأمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر فى الكتب ثم يخرج محمد بن أبى حذيفة والناس للقائهم ، كأنه يتلقى رسل أزواج النبى عليه السلام ، فإذا لقوهم قالوا : لا خبر عندنا ، عليكم بالمسجد ،فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير ، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبى ، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول : إنا لنشكوا إلى الله وإليكم ما عمل فى الإسلام وما صنع فى الإسلام . . . ثم يقول ، ثم ينزل عن المنبر ، وينفر الناس بما قرئ عليهم [1] .

---

(١) الولاة والقضاء ص ١٤ .

وبعث إليهم عثمان بسعد بن أبي وقاص يعطيهم ما سألوا ، فبلغ ذلك ابن أبي حذيفة فخطبهم ، ثم قال : ألا إن الكذاب — كذا وكذا — قد بعث إليكم سعد بن مالك ليفُلّ جماعتكم ، ويشتت كلمتكم ، ويوقع التخاذل فيكم ، فانفروا إليه . فخرج إليه منهم مائة أو نحوها ، فلقوه بمرحلة بني سعد وقد ضرب فسطاطه وهو قائل ، فقلبوه عليه ، وشجُّوه وسبوه ، فركب راحلته وعاد راحلا من حيث جاء[1] .

هذه مرة أشير فيها إلى المنبر والخطبة في ثورة ابن أبي حذيفة ، ولا بد أن المنبر والخطبة كانا وسيلتهم لإيقاظ الفتنة وإشعالها .

وكيف يمر النزاع بين علي ومعاوية بلا خطب ، وقد كان لكل منهما أنصار بمصر ؟ وكيف يمر ما كان بين ابن الزبير وبني أمية بلا خطب ، وقد كثر مثيله في الحجاز والعراق والشام !

ونسمع مرة أخرى بالخطابة في عهد عمر بن عبد العزيز[2] ، فقد طلب أن يدلوه على رجل من أهل مصر له شرف وصلاح يوليه صلاتها ، فدلوه على أيوب بن شرحبيل ، فكتب إليه بولايته ، وأمر البريد أن تكون موافاته يوم جمعة ، ففعل . فراح أيوب إلى المسجد فركع قريباً من المنبر : فلما أذن المؤذن صعد أيوب المنبر ، فخطب الناس وصلى بهم الجمعة وانصرفوا .

وهناك موقف تثور فيه العاطفة وتنطلق الألسنة ، كان المنبر أظهر وسائل البيان فيه ؛ فإنه لما قتل زيد بن علي زين العابدين رضي الله عنه قدم أبو الحكم بن أبي الأبيض العبسي إلى مصر سنة ١٢٢ خطيباً برأسه ، واجتمع الناس إليه في المسجد الجامع ، ولعله رثاه وبكاه ، واستنهض الناس للقيام بثورة على قاتليه ، وبين لهم عيوبهم وسيئاتهم ، ولكن نص خطبته أو شيء منها ليس مذكورا[3] .

(١) الولاة والقضاة ص ١٦ (٢) ص ٦٧ (٣) ص ٨١

وقد يشير الراوى إلى هيئة الخطيب ، ويسترعى انتباهه ملبسه وهندامه ، فيذكر ذلك ولايذكرخطبته ، قالوا ، كان والى مصر سنة ١٢٤ هـ حنظلة بن صفوان ، وكانت له ريطة مثنية يلبسها ويصلى فيها ، فإذا كان يوم الجمعة احتزم بها على قباء أبيض ، وتقلد السيف ، ثم يصعد المنبر فيخطب[١] .

وقد يكون المنبر سلم ضراعة ودعاء : روى أن حفص بن الوليد استسقى بالناس فى إمارة هشام بن عبد الملك ؛ قال بكر بن مضر فرأيته رقى المنبر ، واستقبل الناس بوجهه يخطب ، ودعا ، ثم حول ظهره إلى الناس ، واستقبل القبلة يدعو . وحول رداءه ودعا الله ، ثم حول وجهه إلى الناس ، ثم نزل فصلى ركعتين[٢] .

ولا بد أنه كان يدعو بالمأثور فى الاستسقاء ، يسأل الله أن ينزل الغيث عميما ، وأن يجعله حول الناس والدور لا عليهم ، وأن يجعله كثيراً الخ .

وفى عهد مروان بن محمد كان ثابت بن نعيم ممن خالف عليه ، وقدم مصر ومعه نفر من اليمانية ، فخطبوا فى مسجد مصر ، ودعوا الناس إلى خلع مروان . فموضوع الخطبة ظاهر ، وهى خطبة سياسية بلا شك[٣] .

ولما ولى حوثرة بن سهيل الباهلى مصر سنة ١٢٨ ، أرسل الخليفة كتاباً بشأنه يقول فيه : قد بعثت إليكم رجلا أعرابياً بدوياً فصيح اللسان . فاجمعوا له رجلا فيه مثل فضاله « لعلها خصاله » يسدده فى القضاء ، ويصوبه فى النظر .

فأجمع الناس كلهم على الليث بن سعد وفيهم معلماه يزيد بن أبى حبيب وعمرو ابن الحارث ، وجمع الجند إلى المسجد فخطبهم الحوثرة بشعر بليغ[٤] ومنه :

دعوت أبا ليلى إلى الصلح كى يبو ... ء رأى أصيل أو يرد إلى حلم
دعانى لشب الحرب بينى وبينه ... فقلت له مهلا هلم إلى السلم

(١) الولاة والقضاة ص ٨٢
(٢) ص ٨٢
(٣) ص ٨٥
(٤) ص ٨٨

ولما وليها عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير ، من قبل مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ ، أمر الناس باتخاذ المنابر فى الكور ، ولم تكن قبله ، وإنما كانت ولاة الكور يخطبون على العصى إلى جانب القبلة[١] .

فهذا الاهتمام بالأشياء المتصلة بالخطابة كرجالها ومنابرها وموضوعاتها يدل على وجود هذه الخطابة ، ومن البديهى أن تكون موجودة ، ولكن النص الأدبى الذى نحتكم إليه عند ما نريد أن نحكم على قوتها أو ضعفها ، أو اتجاهاتها العامة والخاصة ، أو تنوعها ، أوغير ذلك من صفاتها ، ليس بين أيدينا .

والظاهر مما تقدم أنها كانت قوية ، وكانت متنوعة ، فكان منها السياسى كخطبة أيوب بن شرحبيل ، ومنها الدينى كخطبة حفص بن الوليد ، ومنها الثورى كخطبة ثابت بن نعيم ، ومنها الهادئ كخطبة الحوثرة .

أما الخطب الحربية فكان لها موضعها فى أول الفتح ، وفى عهد النزاع بين على ومعاوية ، وعند هجوم مروان على جند ابن الزبير بمصر ، وفى عهد زحف العباسيين عليها سنة ١٣٢ هـ .

وقد تشمل الخطبة أكثر من موضوع ، كخطبة عمرو المتقدمة[٢] .

وعند كتب التاريخ من أخبار الفتن والثورات والأحداث إلى قيام العباسيين ما يجعل المؤرخ للخطابة يرجح وجودها وقوتها بسبب هذه الدواعى كاضطراب الأمر على بنى أمية ، وهرب مروان بن محمد إلى مصر ، وقدوم جيوش السودة وراءه .

فمقتضى هذه الثورات والفتن والأحداث أن يكون للخطابة شأنها لقلة شأن الكتابة عندئذ ، وعدم غنائها فى مثل هذه الظروف ، وعدم غناء الشعر فى مناقشة

---

(١) الولاة والقضاة ص ٩٣ .

(٢) أنظر ص ٢٠ من هذا الكتاب .

آراء ، أو بيان حق ، أو دعوة إلى نصرة ، أو ما شابه ذلك . ولكنها كانت أقل عدداً ورجالاً منها فى العراق والشام والحجاز .

وما حفظه التاريخ من هذه الخطب قليل نادر ، وليس هناك نص كامل لخطبة من هذه الخطب . وأسباب قلة المروى من الخطابة العربية تلخص فيما يلى :

١ — كانت بيئة الفصاحة والبيان فى جزيرة العرب مهد الفصحى ، والشام والعراق مهاجرها فى عهد بنى أمية ، فخرج فى هذه البلاد مشاهير الشعراء ، كما ظهر فيها مشاهير الخطباء من الخلفاء ، كمعاوية ، وعبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام ، ومن فصحاء الولاة كزياد والحجاج وخالد القسرى ، ومن زعماء الغاضبين على بنى أمية ، كالحسين وابن الزبير وابن الأشعث ، وزعماء الخوارج كنافع بن الأزرق ، وقطرى بن الفُجاءة ، وأبى حمزة .

٢ — جد من الحوادث والفتن فى تلك البلاد ما جعل الخطابة تشتعل مع هذه الثورات المشتعلة ، وكان بنو أمية فى شغل بأمر ولاية العهد ، ولكل منهم هوى فى ابنه بدلا من أخيه أو ابن عمه مثلا ، ويبدأ ذلك من عهد معاوية . فتشتغل الخطابة فى بيعة يزيد طويلا . وابن الزبير يغضب لهذه البيعة وتسنح الفرصة لخروجه بعد معاوية ، ويستولى على أكثر البلاد الإسلامية ، وتشغل الخطابة مؤيدة ومعارضة ، وبخاصة فى الحجاز والعراق .

ويغضب الشيعة لما يصيبهم من محن ، فتثور ثوراتهم ، وتعلو منابرهم . ويخرج الخوارج ، ويشغلون بنى أمية ، ويكادون يذهبون بملكها ، فيكثر فيهم أعيان الخطباء ، وتشغل الدولة بهم أكثر مما تشغل بغيرهم .

ولا ينام آل البيت على ضيمهم ، فكانوا كلما أصيبوا فى ثورة نهضوا الأخرى ؛ وكان البيان من أقوى وسائلهم لنشر دعوتهم ، وبخاصة فى بلاد المشرق ، فنهضت هناك خطابة مثيرة ، ولكنها كانت تحاول أن تكون منطقية أيضا . وفى هذه

البلاد الشرقية ، ظهر دعاة بنى العباس من الفرس ، وعلت أصواتهم كما لمعت سيوفهم .

٣ — كان للبيان منزلته عند الخلفاء ، وكان مزية من مزايا الولاة . فإذا ظهر والٍ من ولاتهم بحسن الإدارة ومعالجة الفتن مثل الحجاج ، كانت الخطابة من مزاياه أيضا ، وكانت الحاجة إلى هذا النوع شديدة فى العراق لا فى مصر ، كما كانت ولاية العراق جزاء وفاقا لإخلاص هؤلاء الولاة وجهودهم ، إذ كانت أهم ولاية فى الدولة من حيث الأعباء الملقاة على عاتق واليها ، ومن حيث المنزلة العالية التى لها .

٤ — ثم إن الرواة الذين يتحملون الخطب وينقلونها كانوا كثيرين فى العراق والحجاز والشام ، حيث يكثر الأدب وتروج سوقه عند الأمراء والولاة والأعيان . فرووا ما كان حولهم من هذا الأدب القوى خطابة وشعراً .

٥ — وتدوين التاريخ الأدبى فيما بعد كان له أثر فى إهمال الأدب المصرى ، فقد عنى بالشام لأنها مركز الخلافة ، وبالحجاز لأنها موئل العربية ومنبعها ، وبالعراق لأنها مركز حركة أدبية وثورات سياسية أنبتت أدبا عظيما .

فى عهد العباسيين :

قامت دولة بنى العباس على أنقاض الدولة الأموية ، واتخذت البيان سلاحاً واعتمد رجالها على البلاغة — بين ما اعتمدوا عليه — ليكسبوا عطف الناس وقلوبهم ، وليثيروا النفوس على أعدائهم حتى إذا مكن الله لهم فى الأرض ولوا من أمور المسلمين ما كان يليه الأمويون ، وصارت لهم الإمامة وخطبة الجمعة وقيادة الجيوش ، فقويت دواعى الخطابة فى أيامهم وظهر فيهم خطباء مصاقع كما ظهر من ولاتهم ورجال دولتهم من يذكرهم تاريخ الأدب كلما عرض لهذا النوع من البيان .

وتوحى ظروف مصر فى القرن الثانى وأوائل الثالث بنشاط الخطابة وقوتها

بسبب الأحداث والفتن الكثيرة . وتؤيدنا كتب التاريخ فى الإشارة إلى هذه الخطب ورجالها ، لكنا نفتقر إلى نصوص أدبية نجعلها عمادنا فى الحديث عن الخطابة المصرية زمن العباسيين .

ومن خطباء الولاة موسى بن كعب[١] ، والى المنصور عليها سنة ١٤١ ، ويؤثر عنه أنه كان يقول فى خطبته : « من كان يريد جارية فارهة أو غلاماً فارهاً فليرفع يديه إلى الله » وقال فى خطبته « هذا أخوكم عبد الغفار الأزدى كان معكم منذ ثلاث سنوات ثم مات . فلا تغفلوا عما نزل به » .

ولا شئ فى خطبته يشير إلى مصر ، ولكنه خطبها فى مصر وعلى منابرها . وهو فى هذا الأمر المأثور عنه يوجه الناس إلى باب الكريم ، ويأمرهم أن يدعوا الله لغنائهم ، ولعله كان ضيق الصدر برغبات المحتاجين . وعبارة الكندى تدل على أنه كان يكرر النص الأول ، أما النص الثانى فهو أقرب إلى الوعظ .

وكان المنبر للطعن فى الأعداء وشفاء النفس من المنافسين :

يروى أن محمد بن بجير كان والياً على الشرطة لمحمد بن الأشعث والى مصر سنة ١٤٩ وكان فى نفسه ثورة على أبى عون والى مصر قبل ذلك . فكان ابن بجير يصعد المنبر ويقول : النخاس ، الكذاب[٢] .

ووليها للمنصور يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب[٣] (سنة ١٤٤ — ١٥٢) وفى ولايته ظهرت دعوة بنى حسن بمصر ، وتكلم بها الناس ، وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله بن حسن ، وهو أول علوى قدم مصر ، وإن دعوة كهذه

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٥٥ .

كان موسى من نقباء بنى العباس وقد اتهم بأنه من المسودة فى أيام الأمويين ، فأمر به أسد ابن عبد الله البجلى فألجم بلجام ، ثم كسرت أسنانه ، فلما صار الأمر إلى بنى هاشم أمالوا على موسى الدنيا ، فكان يقول : كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز ، ولما جاء الخبز ذهبت الأسنان .

(٢) الولاة والقضاة ص ١٠٩ . (٣) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١ .

لتحتاج إلى بيان وخطابة ، ومن طبيعة اجتماعاتها أن يكون فيها مناقشة وجدل ، وحجج تؤيد بعض الآراء وأخرى تدحضها وهكذا .

وقدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن فى سنة ١٤٥ ، فنصبوه فى المسجد الجامع ، وقامت الخطباء فذكروا أمره ، ومنهم شبة بن عقال[١] .

وربما أغرب بعض الخطباء فى ملابسهم فروى المؤرخ ذلك وأهمل الخطبة ، فقد روى أن عكرمة بن فحزم كان على شرطة أبى عون فخطب وعليه رداء ناريجى ، وكان ابن بجير على شرطة ابن الأشعب يخطب فى قميص وساج . وأول من خطب فى السواد عبد بن الله عبد الرحمن بن معاوية بن حديج[٢] .

ومن التلميحات السريعة عن الخطابة ما روى أن أبا يحيى الصدفى[٣] قال : « رأيت موسى بن عُلَىّ بن رباح والى مصر لأبى جعفر يخطب على منبر صغير خارج من المقصورة » .

وفى عهد موسى بن مصعب[٤] ثارت القيسية واليمانية ، وكاتبوا أهل مصر فانفقوا عليه ، وانهزم عنه أصحابه وقتل ، ولم يتكلم أحد من أهل مصر لأجله كلمة واحدة . وكان موسى هذا ظالماً غاشماً . سمعه الليث بن سعد يقرأ فى خطبته : « إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادِقُها » فقال الليث : اللهم لا تَقِهْ منها .

وقال ابن عُفير[٥] : ما رأيت أحداً على هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن صالح (والى الرشيد على مصر سنة ١٨١ — ١٨٢) . وشهادة ابن عفير لها قيمتها ؛ لأنه أديب ومحدث ثقة ، فشهادته مقبولة .

ولما مات موسى الرضا وانخذل ابراهيم بن المهدى ، كتب المأمون إلى السرى

---

(١) الولاة والقضاة ص ١١٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٧ .
(٣) الولاة والقضاة ص ١١٩ .
(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٥٤ .
(٥) الولاة والقضاة ص ١٣٨ .

بذلك وبغسل المنابر التى دعى عليها لعلى بن موسى [١] .

من الطولونيين إلى الفاطميين :

استمرت الخطابة ولكنه لم يعد يذكر عنها شيء إلا ما كانت تشتمل عليه من دعاء للخلفاء ومن يشاركهم فى سلطانهم . وقد يكون ذلك بصيغ خاصة تدون ثم تتلى فى كل خطبة .

روى أن الموفق سجن أخاه المعتمد سنة ٢٩٦ وكتب ابن طولون بذلك إلى نائبه فى مصر ، ووصف فى كتابه بؤس المعتمد وبكاءه مما صار إليه حاله ، فخطب الخاطب يوم الجمعة فذكر ما نزل بالمعتمد ، وزاد فى خطبته (اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه [٢] .)

وكان يُدْعَى على الموفق فى مصر ، فلما صالح خمارويه دُعى له على المنابر بدلاً من الدعاء عليه .

وانتهى أمر الدولة الطولونية ، وأحرقت القطائع ، ونهبت الفسطاط سنة ٢٩٢ وأطلق من فى السجون . وأمر محمد بن سليمان ، الوالى الجديد ، بأن يدعى على المنابر لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده . وهكذا حتى وليها محمد بن طغج [٣] وفى سنة ٣٢٧ زيد فى لقبه الإخشيد ودعى له بذلك على المنابر .

ثم استبد كافور بأمر البلاد ودعى باسمه على المنابر سنة ٣٥٥ .

وانتهى أمر الطولونيين سنة ٣٥٨ بدخول القائد جوهر فاتحاً باسم المعز لدين الله وخطب له على المنابر ثم جاء المعز نفسه سنة ٣٦٢ هـ .

ولاشك أن الخطابة قد ضعفت فى عهد العباسيين ، وكانت بمصر أضعف ، وبخاصة

---

(١) الولاة والقضاة ص ١٧٠ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٢٢٦ .

(٣) الولاة والقضاة ص ٢٨٨ .

فى القرن الثالث ، وذلك لقيام الكتابة مقامها ، وعدم الاطمئنان إلى الخطابة فى المواقف التى تحتاج إلى الدقة ، ووزن الكلمات ، والحذر من عثرات اللسان ، كالأمور السياسية . فإذا أضيف إلى ذلك ضعف ولاة الأمور والناس عامة فى اللغة ، عرفنا أن الخطابة قد صار أمرها إلى الضعف ، وأن الكتابة أغنت غناءها ، وصارت الكتب تعد بعناية وتتلى من فوق المنابر ؛ فى خلع الموفق كتب أحمد بن طولون كتاب الخلع على نسخ ، وأنفذ إلى كل عمل من أعماله نسخة تقرأ على المنبر فى جميع الأمصار [١] .

ويقول ابن عبدكان [٢] : لقد أمرنى أحمد بن طولون يوماً بإنشاء كتاب يقرأ على المنبر ، فأنشأته ، ودفعته إلى محبوب ليقرأه . وفى رسالة ابن طولون إلى ابنه العباس تهديد من الأب إلى ابنه بأن يرسل إلى الأقطار التى يحكمها كتباً تقرأ على المنابر فيها لعن العباس والبراءة منه يتناقلها آخر عن أول ، وتخلد فى بطون الصحف ، وتحملها الركبان ، ويتحدث بها فى الآفاق [٣] .

وفى كتاب ابن طولون هذا ، بيان لفضل الكتابة على الخطابة بأنها أبقى على الزمن ، وأذيع فى الآفاق ، وأدق عند الانتقال من بلد إلى بلد ، أو من جيل إلى جيل .

ومع هذا فمن العسير أن نسلم بفناء الخطابة أو ذهاب رجالها ، وإنما الذى نعنيه هو قلة دواعيها وضعف الناس فى اللغة ضعفاً يقعدهم عن بديهة الخطابة ، ولكن ورد فى سيرة ابن طولون أن محبوب بن رجاء كان فصيحاً ، وأنه ذكر فى مجلس ابن عبدكان يوما فقال عنه : إنه كان بَيِّن الفضل ، فصيح اللسان ، وإنه لما

---

(١) سيرة ابن طولون ص ٢٩٥ .

(٢) سيرة ابن طولون للبلوى ص ٢٩٥ (٣) صبح الأعشى ج ٧ ص ٥

تسلم الكتاب المشار إليه قريبا ، وهوالذى كتبه ابن عبدكان ليقرأ على المنابر، دفعه إلى صاحب دواته ليسلمه إليه فى الجامع ، فنسى الغلام وحمل شيئاً آخر، وهو يظن أنه الكتاب ، وركب الأمير إلى الجامع ، وصعد محبوب المنبر ومعه ذلك الشىء الآخر الذى حمله إليه الغلام . فلما نشره محبوب علم أن الغلام أخطأ . فاندفع محبوب ، ومضى يقرأ ، وينشر ما فى يده ويطويه ، ليوهم من يراه أنه يقرأ الكتاب ، وكانت ألفاظه عذبة حسنة فى المعنى الذى كان قصده ، وفطن لذلك ابن عبدكان وحده لأنه صاحب الكتاب الأول[1] .

ويدل ذلك على أن الخطب قد صارت كتباً تعد وتتلى من فوق المنابر ، وأن الكتاب هم الذين كانوا ينشئونها ، وتدل هذه الحادثة التى ظهرت فيها فصاحة محبوب بن رجاء وحسن تصرفه على أن الزمن قد يجود بمن يستطيع القول على البديهة ، والتخلص من المآزق ، والإجادة فوق المنابر .

وهذا مثال آخر يدل على أنه كان فى زمن ابن طولون قوم من ذوى البديهة الحاضرة ، والبلاغة الواتية ، والحيلة المنجية :

من ذلك أنه راح فى يوم جمعة إلى المسجد فلما رقى الخطيب المنبر وخطب ، دعا للمعتمد ولولده ، ونسي أن يدعو لأحمد بن طولون ، ونزل عن المنبر مرقاةً ، فأشار ابن طولون إلى سوار الخادم أن إذا فرغ من صلاته وخرج اضربه خمسمائة سوط ، فتذكر الإمامُ وهوعلى المرقاة الثانية ، فرجع إلى أعلى المنبر وقال : الحمد لله وصلى الله على محمد ، « ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ من قبلُ فنسى ولم نجِدْ لهُ عَزْما » اللهم وأصلح الأمير أبا العباس أحمد بن طولون . وزاد فى الدعاء له ثم نزل عن المنبر . قال سوار : فنظر إلىّ مولاى وقال لى : اجعلها دنانير . ووقف الخطيب على ما كان منه فحمد الله جل اسمه على سلامته ، وهنأه الناس بالسلامة[2] .

---

(١) سيرة ابن طولون ص ١٤٧ (٢) سيرة ابن طولون ص ١٥٩ ، وفى خطط المقريزى أن هذا الخطيب كان أبا يعقوب البلخى .

(ب) الوصـــايا

هى نوع من الأدب غايته التوجيه والإرشاد ، والحث على اكتساب المحامد ، والتبصير بحسن السياسة ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .

والوصايا تلحق بالخطب ، لما يجمع بينهما من مشافهة المخاطبين ، والحرص على إقناعهم فى أسلوب قوى محكم ؛ ثم يختلفان فيما عدا ذلك ، فتكون الخطابة لجماعة حاضرة تسمع قول الخطيب ، والوصية لجمع ولواحد ، وللغائب والشاهد ، وتكون نثراً كما تكون شعرا ، وتكون كتابة وقولا . وموضوع الخطب أعم من الوصايا ، فهذه لنفع المخاطبين دائما ، أما الخطب فقد تبعد عن ذلك ، فتكون تهديداً أو رثاء ، أو مدحاً ، أو دعوة إلى مذهب ...

وهذه الوصايا المتنوعة ، تختلف بين الطول والقصر ، ومنها : الوصايا السياسية ، والحربية ، كوصية أبى بكر رضى الله عنه إلى قواده وقد أرسلهم لفتح البلاد[١] . ومنها الوصايا الفنية كوصية عبد الحميد بن يحيى إلى أهل صناعة الكتابة[٢] . ومن أحسن وصايا النساء وصية امرأة عوف بن محلم الشيبانى لبنتها وقد تزوجت ، وهى التى وصتها فيها بزوجها ، وابتدأتها بقولها : « كونى له أمة يكن لك عبدا[٣] » .

وقد تكون الوصية شعراً ونثراً كوصية عبد الله بن شداد لابنه ، وقد أراد سفرا[٤] ، وقد تكون شـــعراً خالصاً كوصية ابن سعيد المغربى لابنه[٥] أبى الحسن ومطلعها :

---

(١) ص ٢٥٤ تاريخ الأمم الإسلامية خضرى أول (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥
(٣) العقد الفريد جـ ٤ ص ١٤٧ (٤) الأمالى جـ ٢ ص ٢٠٢
(٥) هو من شعراء القرن السابع توفى سنة ٦٧٣ هـ .

أودِعك الرحمنَ فى غربتكْ مرتقباً رُحمـــاه فى أوبتك

ومن خير هذه الوصايا وأشملها وأجلها كتاب مشهور من طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله ، لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما ، فكتب إليه أبوه ذلك الكتاب ، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه فى دولته وسلطانه : من الآداب الدينية والخلقية ، والسياسة الشرعية والملوكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة .

وهو كتاب شامل ، قيل إنه لما علم المأمون به حرص على أن يذاع على الولاة فى جميع الأمصار ، فكتب نسخة منه إلى كل مصر فى دولته[1] .

أما جانبه الأدبى فيكفى فى وصفه ، من حيث القوة والوضوح والسهولة ، والاسترسال ، أنه من إنشاء طاهر بن الحسين .

ولا يختص بالوصايا زمان ولا مكان ، فهى شائعة ما احتاج الناس إلى موعظة . وقد حفظ الأدب قليلا من هذه الوصايا فى عهد الولاة بمصر ، ومن أولها وصية قيس بن سعد بن عبادة ، والى مصر لسيدنا على ، يوصى بها محمد بن أبى بكر ، خلفه فى منصبه ، وهذه قصتها :

عزل على رضى الله عنه قيس بن سعد بن عبادة عن مصر ، وولى مكانه محمد بن أبى بكر ، ثم إن قيساً لقى محمد بن أبى بكر فقال له[2] :

« إنه لا يمنعنى نصحى لك ولأمير المؤمنين عَزْلُه إياى ، ولقد عزلنى من غير وَهْن ولا عَجْز ، فاحفظ عنى ما أوصيك به يَدُمْ صلاح حالك ، دع معاويةَ بنَ حُدَيْج ، ومسلمةَ بن مُخَلَّد وبُسْرَ بنَ أبى أرطاة ، ومن صَوَى إليهم ، على ما هم

(١) الكتاب بتمامه فى مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٤ .

(٢) ص ٢٧ الولاة والقضاة .

عليه تكشفهم عن رأيهم ، فإن أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وإن تخلفوا عليك فلا تطلبهم . وانظر هذا الحيَّ من مضر فأنت أولى بهم منى ، فألن لهم جناحك وقَرِّبْ عليهم مكانك ، وارفع عنهم حجابك ؛ وانظر هذا الحى من مُدْلِج فدعهم وما غلبوا عليه ، يَكُفُّوا عنك شأنهم ، وأنزل الناس من بَعْدُ على قدر منازلهم ؛ وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل ، فإن هذا لا ينقصك . ولن تفعل ! إنك ، والله ، ما علمتُ : لتظهرُ الخيَلاء وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك . والله موفقك » .

فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس ، واشتد مع الخوارج فلاقوه بأشد مما أعد لهم ، فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم .

وهذه الوصية سياسية يرسم فيها منهجاً واضحاً لخلفه ، كى تستقيم له الأمور . وتجتمع عليه القلوب ، ويسكت عنه الأعداء ، وقد أحسن المقدمة إذ تناسى الظرف الذى هو فيه ، ظرف العزل عن الولاية ، وقدم نصيحته خالصة ، ولكنه ختمها بما يحمل على مخالفتها ، إذ قال لمحمد « ولن تفعل فإنك والله لتظهر الخيلاء وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك » فكأنه كان يحرضه فى ختامها على رفضها وليس ذلك محموداً فى النصيحة ، فإذا كانت من معزول إلى خلفه كانت موضع شك واتهام ، وكان الميل إلى الخروج عليها أشد . فكيف يذكر له عيوبه ، ويختم بها وصيته ؟

وأما مروان فقد جاء مصر فاتحاً ، وانتصر ، وولى ابنه عبد العزيز أمرها ، ثم رجع بعد أن وصاه . ويقول صاحب النجوم الزاهرة « ثم خرج من مصر بعد أن أوصى ولده عبد العزيز بوصايا كثيرة مضمونها الرفق بأهل مصر »[1] . ومن هذه الوصايا التى حفظها التاريخ عن مروان بن الحكم ثلاث وصايا نعرضها هنا :

---

(١) ص ج ١ .

أولاها وصية سياسية تبدو فيها مهارة مروان ؛ إذ أوصى ابنه أن يستغل عواطف الناس وطبائعهم ، وأن يرضى فيهم غرورهم ، ليكونوا له عوناً على أموره . وذلك أنه لما انتصر مروان بمصر على جيوش ابن الزبير ، وقبل صالح بن جَحْدَم شروط الصلح ، كتب مروان بيده كتاباً لأهل مصر ، ثم ولى عبد العزيز عليها ، فقال له : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فقال له : « يا بنى ، عُمَّهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طَلْقاً تَصْفُ لك مودتهم ، وأوقِعْ إلى كل رئيس منهم أنه خاصَّتُك دونَ غيره يكن عيناً لك على غيره ، وينقادَ قومه إليك . وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسنَ من إغلاق بابك ، وخمولِك فى منزلك[1] »

أوصاه بالجود واشتراء الرقاب ، وتلك خطة طالما أفلحت فى حمل الناس على الطاعة ، وأوصاه أن يكون طلق الوجه كى يخلصوا له المحبة ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل انقلب سياسيا يريد أن يفرق بين الناس كى لا يجتمعوا عليه ؛ وأخص ما أراه فى هذه النصيحة أن قائلها يعرف نواحى الضعف فى النفس الإنسانية ، ويريد لابنه أن يستغلها لمنفعته . ومنها حب المال وإرضاء ما فى النفس من غرور ؛ وهذه الوصية نتيجة تجارب طويلة فى الأعمال التى كان يليها لمعاوية ، ووحى بصيرة نافذة تعرف ما يصلح للعرب من سياسة .

والثانية وصية دينية . خلقية . يهتم فيها بالشورى ، قال عبد العزيز بن مروان : أوصانى مروان حين ودعته عند مخرجه من مصر إلى الشام فقال[1] :

« أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيتك ، فإن الله مع الذين اتقَوْا والذين هم محسنون ، وأوصيك ألا تجعل لداعى الله عليك سبيلا ، فإن المؤذنين يدعون إلى فريضة افترضها الله عليك ، « إن الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

(١) الولاة والقضاة ص ٤٧ .

وأوصيك ألا تعجل فى شىء من الحكم حتى تستشير ، فان الله عز وجل لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالوحى الذى يأتيه ؛ قال الله عز وجل « وشاورهم فى الأمر » .

إنها وصية أب صالح يرقب ربه ، ويرعى أوامره ، ويدرك أن ابنه فى عمله هذا ذو سلطان مستمد من الدين ، فهو أولى الناس باتباع أوامره ، ومن أول هذه الأوامر أداء الصلاة فى وقتها .

والوفاء بالوعد صفة حميدة يدعو إليها الدين ، ويدعو إليها الخلق العربى ، والشورى لها مزاياها ، والدين يأمر بها ويمدحها .

وتراه يقوى هذه الوصية بآيات القرآن الكريم . فهى فى جملتها وصية صالحة من خليفة المسلمين ، إلى من يلى أمراً من أمور المسلمين .

ولما انصرف « مروان بن الحكم » من مصر إلى الشام ولى « عبد العزيز » ابنه على مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكيما ولا توصه » ، أى بنى : انظر إلى عمالك فان كان لهم عندك حق غُدوَةً ، فلا تؤخرهم إلى عشية ، وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخرهم الى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب [فان تعلقوا عليك بكذبة [1]] لم يصدقوك فى الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فان لم يستبن لك فاكتب إلىَّ يأتك رأيى فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سَوْرة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب ، مُطفأُ الجمرة ، فان أول من جعل السجن كان حليما ذا أناة ، ثم انظر إلى ذوى الحسب والدين والمروءة ، فليكونوا أصحابك وجلساءك ،

(١) زيادة يتم بها المعنى وهى غير موجودة فى الأصل .

ثم اعرف منازلهم منك على غيرهم . على غير استرسال ولا انقباض . أقول قولى هذا واستخلف الله عليك[1] » .

هذه الوصية الثالثة أطول وصايا مروان وأشملها ، فهى سياسية : توصى بالعمال خيراً ، لما لهم من فضل فى إدارة البلاد ، وأول ما يجب لهم أن ينالوا جزاءهم فى وقته ، وأن يأخذوا حقهم فى موعده ، فانهم إذا شبعت بطونهم عفت نفوسهم ، ودامت طاعتهم .

وهى خلقية توصى بالصدق فى معاملة الرعية ، واستشارة أهل الشورى من الجلساء والعلماء . وإذا كانت هذه منزلتهم فعلى الوالى أن يحسن اختيارهم من أهل الحسب والدين والمروءة ، وأن يعرف منازلهم مع احتفاظه بوقاره .

أما الدعوة إلى الحكم فى وقت الهدوء والسكينة فذلك لأن سورة الغضب قد تحمل على مجاوزة الحد . والأخذ بأكثر من الذنب ، وتلك الدعوة مصدرها أوامر الدين وروحه .

ولا أستطيع أن أقول بشمول هذه الوصايا لكل ما يجب أن يوصى به . وإنما هى آراء رآها « مروان » صالحة لمستقبل ابنه فى ولايته ، فصاغها هذه الصياغة الفنية الجميلة .

وقد جعل « الكندى » الوصية الثانية عند خروج مروان من مصر عائداً إلى الشام ، وجعل « ابن عبد ربه » الوصية الثالثة عند انصراف « مروان » من مصر كذلك . فهما وصيتان لا وصية واحدة ، لما بينهما من اختلاف فى النصائح والأسلوب ؛ وكأن أباه أدرك حاجته إلى كثرة الوصايا فكررها .

هذه هى كل ما وجدت من عهد بنى أمية بمصر ، ثم يسكت الأدب طويلا بعد ذلك حتى يأتى عهد ابن طولون فيحفظ مؤرخو دولته من وصاياه السياسية الأبوية شيئاً كوصايا مروان ، وهذه وصية دعت إليها رغبته فى دوام الألفة بين أولاده :

وصى احمد بن طولون ولده العباس حينما رضى عليه ، وأطلقه من قيده ، وخلع

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٣

عليه ، وقلده جميع الأعمال الخارجة عن أعمال مصر من الشامات والثغور . وقال له[1]:

« أنا أوصيك يابنى بتقوى الله عز وجل ، ومكافأة أخيك ، والإمساك عن الاستطالة عليه ، بزيادة سنّك على سنّه ، فلا تتركَنَّ لمن يقصدكما من العراق مدخلا بينكما ، يتأتى منه لكما ، ولا تسمع ممن يطلب صلاح نفسه بفساد ما بينكما ، ولا تضمرَنَّ لأخيك غير ما تظهره ، فان القلوب مجندة . واعلم أن جوار أخيك لك أصلح من جوار غيره ، ولا تضمرله خلافا فتبسطا ما بينكما ، ويجدَ عدوكما بذلك سبباً إلى هلاكـكما . وقد تقدمتُ بإزاحة علل رجالك ، فاحرص أن يكون خروجك إلى عملك قبل وفاتي ، فان الراغب عنك كثير ، أكثرُ من المائل إليك ، وأخاف أن تتلوَّم على الطمع فى موضعى وتتريث ، فتذهبَ نفسك ! بصَّرك الله رشدك ووفقك ، ووقاك ما أخافه عليك ، وأحاذره فيك ، بمَنّه » .

وأرى فى هذه الوصـية حرصاً من الوالد على هدوء الحال ، وإصلاح ما بين الإخوة ، وتنبيهاً إلى خطر الساعين بالفساد .

ودعته إلى الوصية الثانية رغبة ملحة فى دوام الملك فى بيته ، وعماد ذلك رضا الرعية ، بلين الجانب وحسن المعاملة ، ثم بحسن تدبير المال ، والإنفاق منه عنـد الضرورة فقط : وهذه هى :[2]

وصى « أحمد بن طولون » ولده « أبا الجيش خمارويه » قبل وفاته فقال له :

يا بنى لا تعدلن عن مشورتى عليك ، فلن تجد أبداً أنصح لك منى ، قد خلفت دَخْـل بلدك يزيد على ماينوبك بجيشك وسائرمؤونتك ، فلا تطلقن فيه يداً بجَـوْر ، فيختل أمرك بخرابه ، ولا تقبل نصيحة من ينتصح لك ، بما يؤول إلى خراب بلدك ، والإجحافِ بعاملك فيه ، فانه عدو مبين من حيث لاتعلم ، فانبـذه عنك ، ولاتقربه منك . وقد خلفت لك رعيتك لايطلبون منك إلا لين الجانب ، والأمن من المخاوف ،

---

(١) سيرة ابن طولون ص ٣٤٢ (٢) سيرة ابن طولون ص ٣٣٩

ولم أكن أمنعهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولكني آثرتك على نفسي ، بمنعي لهم لين جانبي ، والأمنَ من مخافتي ، فاستعمل أنت ذلك معهم فتملك قلوبهم ، ويبادروا إلى طاعتك ، ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك ، في صغير أمرك وكبيره ، ولم أترك لك عدواً أخافه عليك ، واعلم يابني أن كل سرف يَئُول إلى اختلال وتلف. ولا تمد يدك إلى المال المخزون عند خير الخادم ، واجعله ذخيرة لملكتك ، وأقمه مَقامَ جارحة من جوارحك ، لا تبذلها إلا في شدة تخاف معها فَسادَ سائر جسدك، أو عندما تقدر باخراجها صلاح سائر جسدك» — وكان خير الخادم هذا خادم التوكل — ثم قال له : «واسلك يا بني سبيلي ، واقتَفِ آثاري في سائر من خلفتُ ، يأنسوا بناحيتك ، ويحسنوا طاعتك ، ولا يميلوا إلى عدو يخالفك ، ولا تقبلن مقال السعاة فيما تقوَى به سُوقهم عندك ، فكل شر وسوء يئول إلى اضمحلال وزوال ، ويهلك في ذلك من سلكه » .

وإذا كان مروان سخياً في وصيته ، فقد كان ابن طولون حذراً ممسكا ، يذكر المال شحيحاً به ، داعياً إلى الحرص عليه ، والجانب الأدبي في وصايا مروان لابنه أقوى منه عند ابن طولون ، وسهولة الموعظة وصراحتها واضحة عند مروان ، أما ابن طولون فقد شاب وصيته أحياناً شيء من غرابة المعنى، وغرابة تعليله ، إذ يقول في وصيته لخمارويه : « ولم أكن أمنعهم لين جانبي بخلاً به عليهم ، ولكني آثرتك على نفسي بمنعي لهم لين جانبي »

وإذا كان مروان قد رأى في وصيته الأولى أن يعمهم ابنه باحسانه ليكونوا جميعاً بني أبيه ؛ فقد كان ابن طولون يرى اللين مؤديا إلى نفس الغاية ، أما المال فلا يدعو إلى بذله إلا عندما تشتد الأمور ، ولا يكون هناك مفر من بذله ، وكان مروان أصح رأياً ، وأعمق إدراكا للنفوس .